

النقابات عند المسلمين

د. محمد منير سعد الدين

□ التعريف بالنقابة :

تعرف النقابة بأنها « جماعة من العمال تضم مهنة أو أكثر ، أنشئت أساساً من أجل الدفاع عن مصالح الأعضاء ورعايتهم من الناحية الاقتصادية ، وكان هذا التعريف الضيق يتلاءم مع ظروف نشأة النقابات والحاجة إليها من أجل تحسين شروط العمل ، وللمحافظة على الحقوق الاقتصادية للعاملين من حيث الأجور والعلاوات والمعاشات والاحالة الى المعاش ... غير أن تطور الزمن أدى الى اتساع مفهوم النقابة لينطوي على الأنشطة الاجتماعية والاستهلاكية والترويحية ، بجوار المهام الاقتصادية ، وبذلك أعيد تعريف النقابة بأنها : تنظيم اختياري دائم للعمال ، يتولى رعاية مصالحهم والدفاع عن شروط عملهم وتحسين أحوال معيشتهم . وتعرف أيضاً بأنها هيئة أو جمعية أو اتحاد يمثل مجموع العاملين في صناعة أو مهنة أو مشروع صناعي ، ويملك التعبير عن رغباته وآماله ويعمل على تحقيق أهداف اقتصادية (١) .

ونستطيع القول نتيجة للتعاريف السابقة ان النقابة هي عبارة عن اتحاد أو هيئة تضم أعضاء تجمعهم مهنة واحدة ، وتعمل لصالحهم بالنسبة للقضايا التي لا يمكن قيام كل عضو بها على انفراد .

أما بالنسبة لمنظمات المدرسين « فالعمل الجماعي فيها وسيلة فعالة للارتفاع بمستوى قوة المدرس ونفوذه ، فاتحادات العمال قد مارست بنجاح مثل هذا العمل لرفع الأجور ولتحسين ظروف العمل ، وعن طريق المساومة الجماعية والاضراب يستطيع المدرسون الذين يضمهم اتحاد أن يمارسوا قوتهم للحصول على مستوى من العدل الاقتصادي لا يستطيع الحصول عليه المدرس الفردي » (٢) .

وبالنسبة للنقابة والنقيب عند المسلمين فقد تعرض لتعريفها ابن منظور حيث يقول: «النقيب عريف القوم، والجمع نقباء، والنقيب العريف وهو شاهد القوم وضمينهم، ونقب عليهم ينقب نقابة: عرف، وفي التنزيل العزيز: (وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً) (٢)، قال أبو اسحاق: النقيب في اللغة كالأمين، والكفيل ٠٠٠ وفي حديث عبادة بن الصامت (٤): مكان النقباء، جمع نقيب، وهو كالعريف على القوم، المقدم عليهم، الذي يتعرف أخبارهم، وينقب عن أحوالهم أي يفتش».

وكان النبي (ﷺ) قد جعل ليلة العقبة، كل واحد من الجماعة الذين بايعوه نقيباً على قومه وجماعته، ليأخذوا عليهم الاسلام ويعرفوهم شرائطه، وكانوا اثني عشر نقيباً كلهم من الأنصار، وكان عبادة بن الصامت منهم وقيل الرئيس الأكبر.

وقيل للنقيب نقيباً، لأنه يعلم دخيلة أمر القوم، ويعرف مناقبهم، وهو الطريق الى معرفة أمورهم» (٥).

أما الباحثون المحدثون فقد عرفوا التنظيمات الحرفية الاسلامية تعريفات متعددة منها (٦):

— يرى ماسينيون: انها مؤسسة نقابية تقوم بتنظيم الحرفة وحفظ أسرارها وتثبيت أسعار عادلة للمنتجات الصناعية والحفاظ على مستوى الصناعة البشرية.

— ويعرفها ليفي بروفنسال: انها عقد تأسيسي يحدده العرف ويسلم به الداخلون في الجماعة ويقسمون على احترامه.

— ويقول كويتين: انها اتحاد لأصحاب المهن، الغرض منه المحافظة على مستوى الحرفة، وتثقيف المنتسبين اليها.

— ويقدم بير تعريفاً يقول فيه: انها نوع من الاتحاد المهني تقوم على العضوية ذات الطابع الشعبي، يضيف الى ذلك بأنها مجموعة من الناس يعملون في فرع معين من الاقتصاد الحضري، في فترة من الزمن ويكونون وحدة تؤدي وتنجز مختلف الأغراض مثل الممارسات الاقتصادية والمالية والاجتماعية ولا بد في رأيه من توفر شرط آخر، وهو وجود جهازين من الموظفين والمنفذين الذين يختارون من بين أفراد هذه الوحدة ويرأسهم رئيس.

— ويقول ستيرن: ان الصنف يعني نقابة لأهل الحرف أو جمعية تقوم بتصريح رسمي.

— ويرى فلورنس بترسون: ان جمعيات أرباب المهن والعمال في العصور الوسطى عبارة عن طائفة من الصناع اتحدوا سوية من أجل بلوغ غاياتهم من الحماية والتحكم بالسوق المحلية.

ونحن بدورنا نعرف النقابة والتنظيم الحرفي عند المسلمين بأنها: مجموعة من الأفراد يقوم عليهم رئيس، ينتمون الى حرفة واحدة، يربطهم عقد قائم على العرف، ويتضمن هذا العقد المحافظة على مستوى الحرفة وحمايتها وحماية أفرادها.

□ النقابات والأصناف :

آ - نقابة ذوي الأنساب :

لقد قامت عند المسلمين منظمات حملت اسم النقابة الا أنها لم تقم بالمهام التقليدية للنقابة ، هذه هي نقابة ذوي الأنساب ، ويتحدث عنها أبو الحسن الماوردي في سياق حديثه عن الولايات مثل القضاء والولايات ، وحديثه عنها وعن ولايتها ذو أهمية بالنسبة لموضوعنا ، ولو كان يتعلق بالمنايا بذوي الأنساب ، الا أنه يقر مبدأ قيام ولاية خاصة لهيئة داخل الولاية العامة والدولة ، ونرى أيضاً علاقة هؤلاء النقباء بالعلماء وممارستهم التعليم .

يقول الماوردي : « ولاية هذه النقابة تصح من احدى ثلاث جهات ، اما من جهة الخليفة المستولي على كل الأمور ، واما من فوض الخليفة اليه تدبير الأمور كوزير التفويض وأمير الاقليم ، واما من نقيب عام للولايات استخلف نقيباً خاصاً بالولاية فاذا أراد المولى أن يولي على الطالبين نقيباً أو على العباسيين نقيباً اختار منهم أجلهم بيتاً وأكثرهم فضلاً وأجزلهم رأياً يتولى عليهم لتجتمع عليه شروط الرياسة فيسرعوا الى طاعته برياسته وتقسيم أمورهم بسياسته » (٧) .

ويستطرد الماوردي فيقول : « النقابة على ضريين : خاصة وعامة ، فاما الخاصة فهو أن يقتصر بنظره على مجرد النقابة من غير تجاوز لها الى حكم واقامة حد فلا يكون العلم معتبراً في شروطها » (٨) .

ويعرض لمهام النقابة الخاصة ، حيث تكون عوناً للأعضاء المنتسبين اليها في استيفاء الحقوق تارة ، والنيابة عنهم في المطالبة بحقوقهم تارة أخرى .

ويقول الماوردي : « أما النقابة العامة فعمومها أن يرد اليه في النقابة عليهم مع ما قدمنا من حقوق النظر خمسة أشياء: أحدها الحكم بينهم فيما تنازعوا فيه ، والثاني الولاية على أيتامهم فيما ملكوه ، والثالث اقامة الحدود عليهم فيما ارتكبوه . والرابع تزويج الأيتامى اللواتي لا يتعين أولياؤهن أو تعينوا فعضلوهن . والخامس ايقاع الحجر على من عته منهم أو سفه وفكه اذا أفاق ورشد فيصير بهذه الخمسة عامة النقابة فيعتبر حينئذ في صحة نقابته وعقد ولايته أن يكون عالماً من أهل الاجتهاد وليصح حكمه وينفذ قضاؤه » (٩) .

ويحاول الماوردي معالجة نقاط التداخل ما بين ولاية النقابة وولاية القضاء « ويتضح أن الماوردي يجعل النقابة هي المختصة بالفصل عندما يتراضى المتنازعان من أهل البيت بحكم القاضي لأن النقيب أحق بالنظر بينهما . واذا تنازع عضوان كل منهما من نقابة وتمسك بحكم نقيبته فان السلطان هو الذي يفصل بينهما باعتبار أن ولايته أعم الولايات أو يجتمع النقيبان ويحضر كل منهما صاحبه ويشتركان في سماع الدعوة وينفرد بالحكم بينهما رقيب المطلوب دون الطالب ، كما يجوز أن يكون في ولاية

النقيب صرف القاضي عن النظر بين أهل هذا النسب ، وبالتالي فلا يجوز للقاضي أن يتعرض للنظر في أحداً منهم حتى عندما يستعدي إليه مستعد منهم ، وهي مبادئ شديدة الأهمية والخطر وإذا جاز أن توجد النقابة على أساس (النسب) فأولى ثم أولى أن توجد على أساس العمل لأن العمل أهم من النسب والنسب لا يعني شيئاً عند الله وعند الناس .

وهكذا نرى أنه كان من المقرر فقهاً وعملاً وجود نقابة تتكون من تجمع اختياري لعدد من الأفراد يكونون أعضاءها وينتخبون رئيساً أو (نقيباً) لها . ان هذه النقابة تقوم باختصاصات عديدة من ضمنها الدفاع عن حقوق أعضائها والفصل فيما ينشأ بين أعضائها أو ما بينهم وبين سائر الناس من منازعات . وان هذه النقابة كان لها ولاية قضائية واسعة السلطات التي أقرها الفقهاء لهذه النقابة تفوق بمراحل ما تتمتع به أي نقابة في العصر الحديث » (١٠) .

ولقد سميت هذه النقابة بنقابة الأشراف إشارة الى أنها تتعلق بأشراف المسلمين وهم أهل بيت رسول الله (ﷺ) ، وقد رأينا في العصر العباسي ومن خلال هذه النقابة الاجلال لحرمه آل البيت ، ونتيجة لهذا الاجلال كانوا يجعلون منهم رئيساً يتولى أمورهم . وكانت نقابة الأشراف من المناصب السامية ، ولها شأنها ومكانتها لدرجة أن الخلفاء كانوا يكتبون لنقباء الأشراف عهداً أو تقاليد ، تدل على جلالة قدرهم ورفعة منزلتهم ، حتى انه كثيراً ما كان يعهد اليهم سقاية الحج ، وديوان المظالم .

□ نقابة ذوي الأنساب والمعلمين العلماء :

هناك نصوص في التراث ترد حول المعلمين العلماء وعلاقتهم بالنقباء ، ويحاول بعض الباحثين تحميلها أكثر مما تحمل ، فيستنتجون منها أنه كانت هناك نقابة خاصة بالمعلمين مع أن المقصود بها نقابة ذوي الأنساب من طالبين وعباسيين ، من هذه النصوص :

« جمع الأمير العميد أبو نصر الوجوه في يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الآخرة (سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م) ، فأحضر أبا القاسم ابن الوزير فخر الدولة والنقيبين والأشراف وقاضي القضاة والشهود الى المدرسة النظامية وقرئت كتب وقفها ووقف كتب فيها ووقف ضياع وأملاك وسوق بنيت على أبوابها وعلى أولاد نظام الملك على شروط اشترطت » (١١) .

ووقع للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) « جزء فيه سماع الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م - ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م) فحمل الجزء ومضى الى باب حجرة الخليفة ، وسأل أن يؤذن له في قراءة الجزء ، فقال الخليفة : هذا رجل كبير في الحديث فليس له الى السماع مني حاجة ، ولعل له حاجة أن يتوصل اليها بذلك فسلوه ما حاجته . فسئل فقال : حاجتي أن يؤذن لي أن أملي بجامع المنصور ، فتقدم الخليفة الى نقيب النقباء أن يؤذن له في ذلك فحضر النقيب » (١٢) .

وسأل ابن العبادي (١٣) في سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م « أن يجلس في جامع المنصور فقيل له لا تفعل فان أهل الجانب الغربي لا يمكنون الا الحنابلة فلم يقبل فضمن له نقيب النقباء الحماية فجلس يوم الجمعة خامس ذي الحجة في الرواق وحضر النقيبان وأستاذ الدار وخلق كثير » (١٤) .

ويستنتج من النصوص السابقة أن النقيب المقصود أو النقيبين هما نقيب ذوي الأنساب من طالبيين وعباسيين الذين كانوا يقلدون بعض المهام من قبل الخليفة ، ومنها الإشراف على بعض قضايا التدريس ، ويزداد اهتمامهم إذا كان المكلف بالتدريس ينتمي الى الطالبيين والعباسيين ، كذلك كانوا يحضرون احتفالات اقامة المدارس ، وإذاعة اللائحة الداخلية الخاصة بها .

ب - الأصناف والطوائف الحرفية :

هناك هيئات لم تحمل اسم النقابات وان كانت تجتمع على أساس الحرفة والمهنة وتمارس الاختصاصات النقابية ، وقد حملت هذه التنظيمات أسماء متعددة على اختلاف الأماكن والأزمان في المجتمع الاسلامي من هذه الأسماء (الأصناف) ، (أصحاب المهن والحرف) ، (أصحاب الحرف) ، (الأخية الفتيان) ، (الجودية) ، (الكرمية) ، (الطوائف) .

والصنف في اللغة « الطائفة من كل شيء ، وكل ضرب من الأشياء صنف على حدة ، وقد أورد المؤرخون القدامى كلمة (صنف) بشكل يثبت أنها استخدمت منذ البداية للتعبير عن الجماعات الحرفية في المجتمع الاسلامي » (١٥) .

وان من يرجع الى كتب التراث فيما كتبه اليعقوبي ، والجاحظ ، والطبري والخطيب البغدادي ، والسقطي وغيرهم يجدهم يستعملون كلمة الصنف .

فكلمة الصنف استعملت للدلالة على الجماعة الحرفية والمهنية في المجتمع الاسلامي ، كما كان يشار اليها أيضاً (بأصحاب المهن) و (أصحاب الحرف) و (أرباب المهن والحرف) .

□ النقابة وتخطيط المدن ومركز الجامعة والمدرسة فيها :

كانت النقابة مهمة في الحياة الاسلامية بخاصة المتأخرة فيها ، لدرجة أن تخطيط المدينة - التي كانت على أساس سوق تجارية - كان يقرر في كثير من الأحيان حسب حاجات أصحاب الحرف ، فنرى أن المدن الاسلامية من مراكش الى جاوة ظهرت بتمائل عجيب متمركزة حول ثلاث نقاط أساسية (١٦) :

فأول نقطة ثابتة هي سوق الصرافين ، وهو مركز هام دائماً في النظام الاقتصادي لدوره الأساسي بالنسبة للعملة ، كما كانت الحال في البلاد الاسلامية في القرون الوسطى ، ونجد حوالية جامع الكوس (الجمارك) ، ثم دار الضرب (ان وجد هناك سوق واحدة) ثم سوق المزايدة ، ثم المحتسب ، وهو ملاحظ الأسواق ، وهنا نجد الحمالين أيضاً .

والمركز الثاني هو القيصرية ، وهي بناية محكمة تخزن فيها البضائع ، والنفائس الأجنبية ويحتمل أن يكون الاسم بيزنطي الأصل .

والمركز الثالث هو سوق الغزل ، حيث يأتي النساء لبيع انتاجهن اليدوي، وهنا نرى المتعاملين بالحاجات التي يشتريها النساء كالقصاين والخبازين وبائعي الخضـر . الخ .

والمركز الرابع هو الجامعة أو المدرسة ، وهي ملحقة عادة بمسجد ، وفيها يكون الطلبة والأساتذة نظام نقابة حقيقية .

ويشتغل أهل الحرف حول هذه المراكز الأربعة ، كل صنف في سوقه الخاص ، ومما عزز التركيز في الأسواق ، التركيز أيضاً في السكن حيث كان معظم أصحاب الحرف الواحدة يسكنون في أحياء خاصة تسمى بأسمائهم .

وطبيعي أن يكون لهذا التركيز سواء كان ذلك في مجال العمل ، أو في مجال السكن، نشوء رابطة قوية تظهر على شكل تنظيم أو هيئة لها نظمها وآساليها وأهدافها .

□ الاهتمام بمصالح أعضاء الصنف :

لقد ظهر نوع من الاهتمام بمصالح أعضاء الصنف الواحد، ووجد نوع من الضمان أو التأمين ضد النكبات بين أعضاء الصنف الواحد ، فإذا ما تعرض أحدهم لضيق أو نكبة أو رغب في الزواج ، ولم يكن لديه ما يكفيه لجؤوا الى مساعدته بطريقة تحفظ له كرامته وتأمينه على قضاء حاجته ، ولعل هذا ما أشار اليه الجاحظ بقوله :

« ان رجلاً من القصابين يكون في سوقه ، فيتلف ما في يديه ، فيخلى له القصابون سوقهم يوماً ويجعلون له أرباحهم ، فيكون يربحها منفرداً ، وبالبيع منفرداً فيسدون بذلك خلته ، ويجبرون منه كسره » (١٧) .

وربما رأينا مثل هذا التعاون بين المعلمين العلماء ، فيما يقدمون من عون لبعضهم سواء كان مادياً أو معنوياً ، وبالنسبة للناحية المعنوية كنا نرى مواقف تضامنية بين العلماء حين يتعرض أحدهم لاساءة سواء كان ذلك من السلطة أو من جماعات معينة .

□ مراتب الصنف وتقاليده :

ان ما يتوفر لدينا من معلومات عن مراتب الصنف ، لا سيما في الفترات المبكرة من تاريخنا ضئيلة ، ولكن الشيء الذي يمكن قوله ، أن هناك تنظيماً متدرجاً بين أهل الأصناف ، فهناك شيخ الصنف ، والأستاذ ، والخلفة ، والصانع ، والمبتدئ ، كما ظهر في الفترة المتأخرة من العصر العباسي رتبة النقيب في جميع الأصناف .

والقد تكونت مع مرور الزمن لكل صنف عاداته وتقاليده التي تنظم أموره ، وقد عرفت هذه الطريقة بالعرف أو العادة أو السُنَّة ، وأصبح العرف الجاري أشبه ما يكون بال دستور الذي يربط أهل الصنائع ببعضهم ، حتى إن الماوردي اعتبره أساساً يستطيع المحتسب العودة اليه .

ويبدو أنه في العصر الفاطمي « تمتعت الأصناف برخاء عظيم ، فكانت معترفاً بها من قبل الدولة ، ويظهر أنها كانت تتمتع بامتيازات كثيرة ، وأنها لعبت دوراً هاماً في النشاط التجاري الذي حصل في المهدي الفاطمي ، ففي هذا العصر نشأت نقابة الأساتذة والطلاب التي تؤلف الجامعة العظيمة أي الأزهر » (١٨) .

□ نقابة المعلمين والطلاب في الدولة الفاطمية :

وقد أشار المقرئزي إلى نقباء المعلمين خلال حديثه عن الدولة الفاطمية فقال : « قاضي القضاة يلي داعي الدعاة بالرتبة ويتزياً بزيه في اللباس وغيره . وصنفه بأنه يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت يقرأ عليه ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم . واثنين يدعيه نقباء من المعلمين اثنا عشر نقيباً وله نواب كنواب الحكم في سائر البلاد ويحضر إليه فقهاء الدولة ولهم مكان يقال له دار العلم والجماعة ويمنحهم على التصدير بها أرزاقاً واسعة » (١٩) .

وكانت المدارس في الدولة العربية الإسلامية مراكز تجمع مهني « ففيها يكون الأساتذة والطلبة (نظام نقابة حقيقية) حيث يلتحق كل طالب بأستاذ كما حصل في السوق بين الصناع والأساتذة ، ويتعهد للتعليم في هذه المدارس المدرسون والمعيدون ، فالمدرس يقوم بالتدريس ، أما المعيد فيليه في الرتبة وكان من واجبه أن يعيد ما ألقاه الأستاذ على الطلبة ليفهموه ويحسنوه ، وكانت للتعليم نظم وشروط معينة تدل على تقدمه وتنظيمه حتى قيل بوجود نقابة للمدرسين لا سيما في العصور المتأخرة » (٢٠) .

وكان للتعليم أخلاقياته ، حتى يمكن القول أنه كان له دستور يلتزم به المعلمون ، وهو يستمد معظم محتوياته من إرشادات مصدرها القرآن والسنة النبوية ، وقد حفلت كتب تراثنا التربوية بهذه الأدبيات والأخلاقيات المهنية للمعلمين فوردت تحت عنوان آداب العالم والمتعلم .

وكذلك لوحظ بين أصحاب الأصناف ومنهم العلماء المعلمون وراثته في مهنة التعليم بحيث يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وتنحصر في أسر معينة ، « فهناك نوع من الصفوة وهي عبارة عن مجموعة أوضاع ومراكز مورثة ويعد لها ، وكان أعيان الصفوة يتخذون من التربية مسلماً وظيفياً يؤهل أبناءهم لوراثة الحكم أو الإدارة أو المعرفة أو المشيخة أو الثروة ، وهكذا كانوا حريصين على تربية أبنائهم ، وتسهيل طريق النجاح أمامهم ، وحجز الوظائف أو المواضع الأثيرة لهم ، مما جعل الوظائف ذات التقدير الأدبي والمادي في المجتمع محتكرة أو شبه محتكرة في بعض البيوت والأسر » (٢١) .

ولذلك جرت العادة أن تكون المهن العلمية كالتعليم محتكرة في عائلات خاصة كما كانت أي صناعة أو حرفة من الحرف ، فينشأ الابن وقد لقن أسرار المهنة عن والده فيحتفظ بها ليسلمها من بعده لأولاده ، وإذا سمعنا عن أسر علمية كثيرة ترددت أسماؤها في مجال التعليم أمثال : آل عصرون ، والجوزي ، والسبكي ، والسمعاني ، وابن عساكر ، وغيرها ممن احتكروا الوظائف المتعددة .

أما بالنسبة للطلبة فقد كان لهم « نقيب يختار من جملة الطلبة في كل درس من الدروس لحفظ النظام وكتابة غيبة من يغيب عن الحضور ، وفي بعض المدارس كان المدرس هو الذي يختار النقيب أو يقوم الناظر باختياره بنفسه » (٢٢) .

□ المحتسب ورقابة الدولة على التعليم :

لعل من ينظر في أمور الحسبة وأصولها في الحكومات الإسلامية ، يعلم ما هياها المسلمون لمدنهم وسكانها من ضروب الراحة والهناء ، وكيف حاولوا إبعاد الظلم والشقاء عنها .

وتعرف الحسبة « (بالكسر) الأجر ، وهو اسم من الاحتساب أي احتساب الأجر على الله ، تقول فعلته حسبة وأحتسب فيه احتساباً ، والاحتساب طلب الأجر » (٢٣) .

يقول ابن خلدون « الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له ومن مهامه الضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع واستعداد بل له النظر والحكم فيما يصل على علمه من ذلك ورفع اليه وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقاً بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعاش وغيرها في المكاييل والموازين وله أيضاً حمل الماطلين على الانصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بيّنة ولا انفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لمعمومها وسهولة أغراضها فتدفع لصاحب الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء » (٢٤) .

ومن خلال قول ابن خلدون نرى اناطة مهام بالمحتسب تتصل بأمور تتعلق بمسؤوليات المعلم وخاصة في المرحلة الأولية من التعليم ، ولذلك فإن معظم المعلومات عن واجبات معلم المرحلة الأولية يمكن أن نحصل عليها عن طريق الكتب الخاصة بالحسبة والتي تتحدث عن واجبات المعلمين .

ففي مكان التعليم « لا يجوز استخدام المساجد للتعليم الخط لأن الرسول (ﷺ) أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها وينجسون أرجاءها إذ لا يحترزون من البول وسائر النجاسات بل يتخذون للتعليم مواضع شرحة من أطراف الأسواق ويمنعون أيضاً من التعليم في بيوتهم » (٢٥) .

أما الشروط الواجب توفرها في معلم الكتاب وبالتالي على المحتسب مراقبة تنفيذها فهي أن يكون المعلم من « أهل الصلاح والعفة والأمانة حافظاً للكتاب العزيز ، جيد الخط ، يدرس الحساب والأولى أن يكون متزوجاً ، ولا يُفَسَّحَ لعاذب أن يفتح مكتباً للتعليم إلا أن يكون شيخاً كبيراً ، وقد اشتهر بالدين والخير ومع ذلك لا يؤذن للتعليم إلا بتزكية مرضية ، وثبوت أهليته لذلك » (٢٦) .

أما منهج التعليم الذي ينبغي على معلم الكتاب السير وفق محتواه فيكون بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل ، ويُدْرَجُه المعلم بذلك حتى يألّفه طبعاً ، ثم يُعرّفه عقائد السنن ثم أصول الحساب ، وما يستحسن من المراسلات وفي وقت بطالة العادة يأمرهم بتجويد الخط على المثال ، وتكليفهم عرض ما أملاه عليهم حفظاً غائباً لا نظراً « (٢٧) » .

وينبغي أن يمنع الصبيان « من حفظ شيء من شعر أبي الحجاج (٢٨) والنظر فيه ، ويضربهم على ذلك ، وكذلك ديوان صريع الدلاء (٢٩) ، فانه لا خير فيهم . ويزجرهم عن ذلك » (٣٠) .

أما بالنسبة للتربية العملية والخلقية للصبيان ، فمن كان عمره من الصبيان سبع سنين أمره بالصلاة في جماعة لأن النبي (ﷺ) قال : « علموا صبيانكم الصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر » (٣١) .

ويأمرهم « ببر الوالدين والانتقياد لأمرهما بالسمع والطاعة والسلام عليهما ، وتقبيّل أيديهما عند الدخول اليهما ويضربهم على اساءة الأدب والفحش من الكلام وغير ذلك من الأفعال الخارجة على قانون الشرع مثل اللعب بالكعب والبيض والنرد وجميع أنواع القمار » (٣٢) .

أما العقاب وتطبيقه « فلا يضرب المعلم صبياً بعصا غليظة تكسر العظم ولا رفيعة لا تؤلم الجسم بل تكون وسطاً ، ويتخذ مجلداً عرض السير ويعتمد في ضربه على الألياء والأفخاذ وأسافل الرجلين لأن هذه المواضع لا يخشى فيها مرض ولا غائلة » (٣٣) .

ولا ينبغي « استخدام الصبيان في حوائجه وأشغاله التي فيها عار على آبائهم ، كنقل الزبل وحمل الحجارة وغير ذلك ، ولا يرسله إلى داره وهي خالية لئلا تتطرق إليه التهمة ، ولا يرسل صبياً إلى امرأة ليكتب لها كتاباً ، ولا غير ذلك فان جماعة من الفساق يحتالون على الصبيان بذلك » (٣٤) .

أما السائق الذي يتكلف بإيصال الصبيان إلى بيوتهم « فينبغي أن يكون أميناً ثقة متأهلاً لأنه يتسلم الصبيان في الغدو والرواح ، ويتفرد بهم في الأماكن الخالية ويدخل على النسوان فيلزم أن يكون كذلك » (٣٥) .

ويمنع المعلم من « أخذ شيء باسم النوروز والمهرجان ، ويُحذّر معلمي العلوم من التفرير بأولاد الناس ، ويوقفون من كان سيئ المعاملة فينهونه بالردع والأدب » (٣٦) .

ولعل الأمر لم يقتصر فقط على معلمي الكتاب في المرحلة الأولية بل تعداه إلى العلماء معلمي المرحلة العالية ، الذين التزموا بأخلاقيات أشبه ما يكون بالمعرف والعادة وأخذت طابع الانزمام الأخلاقي ، وكذلك بلوائح داخلية لتنظيم العمل في المؤسسات التعليمية كما يفعل الواقفون ، وهذا الماوردي يشير إلى أمور تتعلق بالعلماء في المرحلة العالية فيقول : « أما جلوس العلماء والفقهاء في الجوامع والمساجد والتصدي للتدريس والفتيا فعلى كل واحد منهم زاجر من نفسه أن لا يتصدى لما ليس له بأهل فيفضل به المستهدي

ويزل به المسترشد ، وقد جاء في الأثر بأن (أجراكم على الفتيا أجروكم على جرائم جهنم) والسلطان فيهم من النظر ما يوجبه الاختيار من اقرار وانكار ، فإذا أراد من هو لذلك أهل أن يترتب في أحد المجالس لتدريس أو فتيا نظر حال المسجد، فإن كان من مساجد المحال التي لا يترتب الأئمة فيها من جهة السلطان لم يلزم من يترتب فيه للتدريس والفتيا استئذان السلطان في جلوسه كما لا يلزم أن يستأذنه فيه من ترتب للإمامة وإن كان من الجوامع كبار المساجد التي ترتب الأئمة فيها بتقليد للسلطان روعي في ذلك عرف البلد وعاداته في جلوس أمثاله ، فإن كان للسلطان في جلوس مثله نظر لم يكن له أن يترتب للجلوس فيه إلا عن أذنه كما لا يترتب للإمامة فيه إلا عن أذنه يفتات عليه في ولايته، وإن لم يكن للسلطان في مثله نظر معهود ولم يلزم استئذانه عليه في ولايته للترتيب فيه صار كغيره من المساجد ، وإذا ارتسم بموضع من جامع أو مسجد فقد جعله مالك أحق بالموضع إذا عرف به ، والذي عليه جمهور الفقهاء أن هذا يستعمل في عرف الاستحسان وليس بحق مشروع وإذا قام عنه زال حقه منه وكان السابق إليه أحق «(٣٧)» لقوله تعالى : (سواء العاكف فيه والباد) (٣٨) .

الخلاصة : هذا ومن خلال العرض السابق لنشأة وتطور الأصناف والنقابات والطوائف الحرفية في المجتمع الاسلامي منذ القرن الثالث الهجري حتى القرن السابع الهجري يتضح ما يلي :

١ - من الثابت « أن العالم الاسلامي قد عرف النقابات لكنها لم تكن تنظيمات عمالية بالمعنى المفهوم حالياً . وإنما كانت اطارات وتنظيمات مهنية واجتماعية تجمع طوائف من الناس ذات مصالح مشتركة ويتجلى الطابع الاجتماعي للنقابة من تسميتها بالعشيرة ، ولفظ العشيرة نفسه يدل على رابطة اجتماعية بين أفرادها ، فكان رئيس النقابة يلقب بشيخ العشيرة ، وهو لقب يحمل الى الذهن معنى رب الأسرة ، وبالفعل كانت النقابة في البلاد الاسلامية أقرب الى أسرة واحدة تربط بين أفرادها روابط القرابة والمصاهرة منها الى روابط المهنة والمصلحة المشتركة » (٣٩) .

٢ - كانت تربط أعضاء النقابات بعضهم ببعض تقاليد وأعراف وقواعد سلوك يلتزمون بالسير عليها ، فللمعلم على الشغالين العاملين عنده حقوق لا يمكن تجاهلها، فعليهم احترامه وخدمته، والتعامل معه بكل أمانة وإخلاص، ولهم كذلك على معلمهم حقوق فيما يتصل بالأجور وساعات العمل .

وكانت نقابات «المهن مسؤولة عن مستوى المهنة بحيث « يستطيع العميل أن يتقدم بالشكوى الى النقيب في حالة محاولة العامل خداعه أو قيامه بالعمل بصورة ظاهرة النقص والعيب ، وكان المعلمون أو (الأسطوات) أي الأساتذة كما كانوا يسمون هم الذين يحددون مستوى الصنعة وأجورها المناسبة في حالات الخلاف ، والمعلم له مقام الوالد على صبيانته وشغاليه » (٤٠) .

« وكانت أهداف التربية الحرفية تتجه أساساً الى ما يتعلق بالدولة والمستهلك وما يتعلق بالطائفة كقوى منتجة وما يتعلق بالصنعة والناحية الفنية » (٤١) .

وقد لوحظ من خلال كتابات عدد من المفكرين المسلمين اصرار على التزام العلماء بأدبيات وأخلاقيات معينة .

٣ - تقبل المجتمع الاسلامي وجود هيئات ومنظمات تتجمع على أساس الحرفة والمهنة ولم يجد في الأصول الاسلامية ما يدعو الى الوقوف في وجهها أو منع قيامها أول مرة ، رغم وجود جيل من التابعين أو تابعي التابعين ، وازدهار الفكر الاسلامي ، وانتشار الشريعة الاسلامية في مجالات الحياة .

٤ - اعترفت الدولة الاسلامية بهذه المنظمات وأسندت اليها بعض الاختصاصات وأوجدت علاقة وثيقة ما بينها وبين المحتسب الذي يمثل السلطة المدنية .

٥ - يبدو بشكل غير جازم وجود نقابات للمعلمين ، والتي ظهرت بشكل واضح في العصر الفاطمي كما أورد ذلك برنارد لويس ، وكذلك من الملاحظ تدخل المسؤولية في مراقبة أمور معينة تتعلق بالمعلمين بين نقابة ذوي الأنساب والدولة خاصة لجهة تصدر العالم للتعليم .

٦ - ربما كان لنظام الفتوة « ارتباطات بتنظيمات الاصناف خاصة في الفترة الأخيرة من العصر العباسي وفي عهد الخليفة الناصر لدين الله فقد ألبسه في سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م الشيخ عبد الجبار بن صالح البغدادي لباس الفتوة ، وألحق مثل هذه المنظمات بالدولة وجعلها تحت اشرافه ، ولم يكتف بذلك بل عزم على تعميمها في جميع الممالك الاسلامية فكتب الأمراء والملوك طالباً منهم الانتماء الى الفتوة ، فانتشر هذا المذهب بين الكثير في شرقي الأرض وغربها » (٤٢) .

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - زيدان عبد الباقي : علم الاجتماع المهني ، ص ١٤٤ .
- ٢ - فيليب . هـ . فينكس : فلسفة التربية ، ص ٢٧٣ .
- ٣ - سورة المائدة : آية ١٢ .
- ٤ - عبادة بن الصامت : (ت ٣٤ هـ / ٦٥٤ م) ، كان من سادات الصغابة الموصوفين بالورع ، ومن رواة الحديث ، شهد العقبة ، وكان أحد النقباء ، وحضر بدرًا وسائر المشاهد ، ثم حضر فتح مصر ، (الزركلي : الاعلام ، ج ٤ ، ص ٣٠) .
- ٥ - ابن منظور : لسان العرب ، ج ١ ، ص ٧٦٩ - ٧٧٠ .
- ٦ - صباح ابراهيم الشبخلي : الاصناف في العصر العباسي ، ص ٥٩ .
- ٧ - الماوردي : الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، ص ٩٦ .
- ٨ - المكان نفسه .
- ٩ - المرجع السابق نفسه : ٩٧ .
- ١٠ - جمال البنا : الاسلام والحركة النقاوية ، ص ٣٦ - ٣٧ .

- ١١ - عبد الرحمن بن الجوزي : المنتظم ، ج ٨ ، ص ٢٥٦ .
- ١٢ - ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ١٦ .
- ١٣ - أبو منصور المظفر أوردشير بن أبي منصور العبادي ت ٥٤٧ هـ / ١٥٥٢ م) الواعظ ذو اليد الباسطة فيه ، حتى صار يضرب المثل على المنبر بحسن إirاده وبذيهته (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٥) .
- ١٤ - عبد الرحمن بن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٤٥ .
- ١٥ - صباح إبراهيم الشيعلي : الأصناف في العصر العباسي ، ص ٦٥ .
- ١٦ - برنارد لويس : النقابات الإسلامية ، في مجلة الرسالة عام ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م ، ص ٦٩٦ .
- ١٧ - الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
- ١٨ - برنارد لويس : النقابات الإسلامية ، ص ٧٣٥ .
- ١٩ - المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .
- ٢٠ - صباح إبراهيم الشيعلي : الأصناف في العصر العباسي ، ص ٣٧ - ٣٨ .
- ٢١ - محمود قمبر : دراسات تراثية في التربية الإسلامية ، ص ٣٠٩ .
- ٢٢ - عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٨٩ .
- ٢٣ - محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٢٤ .
- ٢٤ - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٢٥ - ٥٢٦ .
- ٢٥ - القرشي : معالم القرية في أحكام الحسبة ، ص ٢٦٠ .
- ٢٦ - المكان نفسه .
- ٢٧ - المكان نفسه أيضا .
- ٢٨ - حسين أحمد أبو عبد الله النيلي البغدادي (ت ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م) ، شاعر فحل من كتاب العصر العباسي ، قال الذهبي : شاعر العصر سقيه الأدب ، أمير الفتحش . (الزركلي : الأعلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٩) ، (البغدادي : تاريخ بغداد ج ٨ ، ص ١٤) .
- ٢٩ - اسم هذا الشاعر أبو الحسن علي بن عبد الواحد ، الفقيه البغدادي ، المعروف بصريح الدلاء قتيل الفواني ، الشاعر الماجن ، قدم مصر سنة (٤١٢ هـ / ١٠٢١ م) ، ومدح الخليفة الفاطمي الظاهر ، ومات في القاهرة في تلك السنة . (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٤٥٣) ، (السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥٦٢) .
- ٣٠ - القرشي : معالم القرية في أحكام الحسبة ، ص ٢٦٢ .
- ٣١ - في رواية « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع) ، حديث حسن ، رواه أبو داود بإسناد حسن .
- ٣٢ - القرشي : معالم القرية في أحكام الحسبة ، ص ٢٦١ .
- ٣٣ - المكان نفسه .
- ٣٤ - الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٤ .
- ٣٥ - المرجع نفسه : ص ١٠٤ .
- ٣٦ - محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٢٧ .
- ٣٧ - الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .
- ٣٨ - سورة الحج : آية ٢٥ .
- ٣٩ - حسين مؤنس : عالم الإسلام ، ص ٢٤٢ .
- ٤٠ - المرجع نفسه : ص ٢٤٣ .
- ٤١ - سعيد اسماعيل علي : معاهد التربية الإسلامية ، ص ٥٧٥ .
- ٤٢ - صباح الشيعلي : الأصناف في العصر العباسي - ص ١٧٤ .